Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 39:3 (2004)

الفكاهة والضحك والترويح عن النفس في التراث الإسلامي

بركات محمد مراد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "روّحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت". وقال علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: "أجمّوا هذه القلوب والتمسوا لها طُرف الحِكمة، فإنها تملّ كما تملّ الأبدان".

الفكاهة:

الفكاهة تمثّل مظهرا من مظاهر الوجود الإنساني، وهي مظهر إيجابي، فهي موجودة في حياتنا كافة لدى الأطفال ولدى الكبار، في حالات الفرح والترويح، وفي حالات المشقة والأزمات النفسية. ويتمثّل الرأي الغالب في علم النفس الآن في النظر إلى الفكاهة، على أنها أحد أساليب المواجهة (Coping Styles) التي تستعين بها المجتمعات في مواجهة بعض مشكلاتها السياسية والاقتصادية.

ويؤكد كثير من الأطباء على أن الضحك والفكاهة لا يفيد في مواجهة الضغط النفسي فقط، بل يعمل أيضاً على تنشيط الجهاز المناعي، والحد من آثار الشيخوخة، والتقليل من احتمالات الإصابة بالأزمات القلبية، وتحسين الوضع النفسي والجسمي للإنسان بشكل عام مما يجعله أكثر تفاءلا، وأكثر إقبالا على العمل، وعلى الحياة بشكل عام.

وهذا ما دعا الأديب الفرنسي رابليه إلى القول بأن: "الضحك هو الخاصية المميّزة للإنسان" والفكاهة "رسالة اجتماعية مقصودٌ منها إنتاج الضحك أو الابتسام". ومثلها مثل أي رسالة اجتماعية أخرى، تحقق الفكاهة بعض الأهداف أو الوظائف، وتستخدم بعض الأساليب وتكون لها بنيتها الخاصة، ومحتواها المميّز لها أيضا، كما أنها تستخدم في مواقف معيّنة لها طبيعة خاصة.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

ولذلك كان للفكاهة تاريخ طويل في الثقافة الإنسانية، حيث اهتم بها كثير من المفكّرين والفلاسفة وعلى رأسهم أفلاطون وأرسطو قديما وشوبنهور وبرجسون حديثا. كما اهتم بها أدباء كالجاحظ وأبي حيان التوحيدي في الفكر الإسلامي، وبودلير وجورج إليوت من الأدباء المحدثين، وكل ذلك لأهمية الفكاهة والضحك وفوائدهما الكبيرة في تربية الأطفال وتعليمهم، والتسرية عن الكبار للخروج من هموم الحياة والتغلّب على آلامها ومصاعبها.

ولا ننسى أن مراعاة حظ النفس الإنسانية من الترويح ببعض اللهو المباح يضفي على حياة الإنسان ألوانا من النشاط مما يدفعها لمزيد من العمل والعبادة، وإن كل محاولة لطمس هذا الأمر في نفس الأنسان، وإلزام النفس بالجدّ في كل حال وشأن إنما هو ضد الفطرة السليمة، فكأن في مشروعية الترويح عن النفس ببعض الفكاهة والمرح رِفْقاً بالنفس الإنسانية، وهذه الأمور تعتبر من المصلحة، والمصالح في الشريعة الإسلامية معتبرة شرعا.

وسطية الإسلام واعتداله:

يتعامل الإسلام مع الحياة الإنسانية الدنيوية بجوانبها المتعددة، بشكل متوازن، فلا يميل إلى جانب على حساب جانب آخر، ولا يهتم بناحية دون النواحي الأخرى، فلا إفراط فيه ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، إنَّما هو كلّه اعتدال وتوازن، وتوسط وعناية ورعاية بكل جانب بالقدر الذي يستحق دون جور على ما سواه قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوْا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُوْنَ الرَّسُوْلُ عَلَيْكُمْ شَهِيْدًا** ﴾[1].

ومن مظاهر التوازن في هذا الدين الاعتناء بالجانبين الجسدي والروحي في الحياة البشرية، ولذلك وضع الإسلام القواعد الحكيمة التي تحقق التوافق بينهما، فالإنسان ـ على ما هو معروف ـ روح وجسد وعقل، تتنوع حاجاته، وتتعدد رغباته، ومن هنا فالمنهج الإسلامي الراشد يلبّي كل ما يحتاج إليه الإنسان، ويقيم التوازن بين مُكوِّناته دون طغيان لمكوّن على غيره، وبهذا تتحقق السعادة الحقيقية في أسمى صورها.

إنَّ واقعية الإسلام وبعد نظرته الثاقبة الواعية لحقائق الأشياء حصيلة يتفرد ويمتاز بها عمّا سواه، بالصلاحية والاستمرار لهداية النفس البشرية، فالإسلام دين واقعي لا يجنح إلى مثال خيالي يعامل الناس على أنهم أجساد بلا أرواح كالجماد أو أرواح بلا أجساد، ولكنه يعاملهم على أنهم بشر يأكلون ويشربون، يفرحون ويمرحون، يضحكون ويبكون، لهم غرائزهم ورغباتهم. كذلك حرّم الرهبنة

---

١ – سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

بشتى صورها[٢]، لتعمّر الحياة، وكره الامتناع عن الزواج أو الانقطاع للعبادة بالكلية، ونهى عن صوم الدهر وعن صوم الوصال[٣]، وعن الإغراق في أداء الشعائر والقربات على حساب ما أباحه الله تعالى من وسائل العيش الكريم، ولذلك فإن من أهم صفات الشريعة الإسلامية أنها لا تكلّف الناس ما لا يستطيعون، ولا تطلب منهم ما لا يقدرون، فالالتزام بها، والانقياد لأحكامها في حدود الطاقة البشرية، ووسع النفس الإنسانية، قال تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِيْ الدِّيْنِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ **يُرِيْدُ اللّهُ بِـكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيْدُ بِـكُمُ الْعُسْرَ** ﴾[٥]، ﴿ **يُرِيْدُ اللّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيْفًا** ﴾[٦]. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الدين يسر ولن يُشَادَّ الدّين أحد إلا غلبه فسدّدوا وقاربوا وأبشروا"[٧].

كما حضّت الشريعة الإسلامية على صدق الإيمان الصحيح الراسخ بالله تعالى، والعمل الصالح الموصل لرضا الله عزّ وجل ومثوبته، وعدم الإغراق في الملذّات والشهوات بالكلية، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِيْنَ جَاهَدُوْا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِيْنَ** ﴾[٨]. وقد لفت الله سبحانه وتعالى أنظار عباده في القرآن الكريم إلى الطريق القويم في التفكير السليم والنظر الصائب، بما يشحذ الذهن، ويبعث فيه حرية التفكير، ولذّة التزود بالمعرفة، وجعل الحواس نوافذ يطلّ منها الإنسان على هذا العالم الفسيح، ليبصر حقائق الكون، ويعتبر بما فيه من دلائل قدرة الصانع: ﴿ **إِنَّ فِيْ خَلْقِ السَّمَآوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِيْ تَجْرِيْ فِي الْبَحْرِ بِـمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَآ أَنْأَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِـهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيْفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ**

---

٢ – الرهبنة التخلّي عن اشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها، وفي التنزيل العزيز ﴿ **وَرَهْبَانِيَةً ابْتَدَعُوْهَا** ﴾ **المعجم الوسيط**، حديث رقم: ٣٩٠١٢، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

٣ – الوصال في الصوم: صوم يومين فأكثر بلا فطر بينهما قصدا.

٤ – سورة الحج، الآية: ٧٨.

٥ – سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

٦ – سورة النساء، الآية: ٢٨.

٧ – **صحيح البخاري**، حديث رقم: ٢٨١١، كتاب الإيمان، دار الفكر، بيروت ـ **سنن النسائي**، ١٢١١٨ وما بعدها.

٨ – سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ﴾(٩). والشريعة الإسلامية بين شرائع الله عزّ وجل كلها هي التي تحقق تلك النواحي الشاملة لجوانب الحياة البشرية في الأشواق الروحية، والمطالب المادية، والرقيّ العقلي والتكامل النفسي في انسجام ووئام.

فالدعوة إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصفات الكمال، تعتمد على النظر العقلي والتفكير المنطقي ﴿**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُوْنَ**﴾؟ والدعوة إلى العبادة للتهذيب النفسي والتربية الروحية تأتي مقرونة بالسعي في الأرض ابتغاء الرزق ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْآ إِذَا نُوْدِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوْا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوْا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوْا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوْا اللَّهَ كَثِيْرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ**﴾(١٠).

وطيّبات الحياة التي أباحها الله تعالى لاستمتاع الإنسان تأتي كذلك مقرونة بالقربة إليه "وفي بُضع أحدكم صدقة" الحديث. "ولستَ تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرْتَ بها حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك" الحديث.

والحدّ الفاصل في هذه الأمور كلها هو الاعتدال الذي تميّزت به الأمة الوسط: ﴿**يَآ بَنِيْ آدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلاَ تُسْرِفُوْآ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيْ لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ**﴾(١١).

ومن هنا كان الإسلام هو الدين الذي لمس القلب ومسّ النفس، وأشرف على الضمير وخاطب العقل واعترف بحاجات النفس ونداء الفطرة، وحثّ على العمل، وجعل الراحة جزءا منه، وعمودا من أعمدته، وكانت له توجيهات هادفة، ونصائح بنَّاءَة، تعتبر دليل عمل للتوفيق بين حظوظ النفس وأداء الواجب للإنسانية كلها.

ومن هنا كان الحديث الشريف "روّحوا القلب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد". والحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه: "إنّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق". وتجسّد الآية الكريمة الحياة الإنسانية المتكاملة في قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيْمَآ آتَاكَ**

---

٩ – سورة البقرة، الآيتان: ١٦٤، ١٦٥.

١٠ – سورة الجمعة، الآيتان: ٩، ١٠.

١١ – سورة الأعراف، الآيتان: ٣١، ٣٢.

اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِيْنَ﴾(١٢).

مشروعية الترويح عن النفس:

الترويح عن النفس الإنسانية مشروع من حيث الأصل بدليل الكتاب والسنّة والأثر والمعقول.

أولا: دليل الكتاب:

قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيْ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيْعاً**﴾(١٣) ووجه الدلالة: أخبر الله تعالى بأن جميع المخلوقات الأرضية خلقت للناس، لأن "ما" موضوعة للعموم، وأكدت بقوله "جميعا"، واللام في "لكم" تقتضي الاختصاص على جهة الانتفاع، أي أن جميع ما في الأرض مختصّ بكم لتنتفعوا به، فيكون الانتفاع بجميع المخلوقات الأرضية مأذونا فيه شرعا، والترويح عن النفس من جملة ما ينتفع به فيكون مأذونا به شرعا. وقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾(١٤) ووجه الدلالة: أنَّ "اللام" مفيدة للاختصاص في قوله "لعباده" والترويح عن النفس من جملة الزينة التي أذن الشارع الحكيم بالانتفاع بها. كذلك قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**﴾(١٥) وجه الدلالة: أنَّ "اللام" في "لكم" تدل على أن الطيبات مخصوصة بناء على جهة الانتفاع، والترويح عن النفس من جملة ما ينتفع به فيكون حلالاً بلسان الشرع.

أما السنّة النبويَّة الشريفة:

فقد ورد عن السيّدة عائشة رضي الله عنها: "إن الحبشة كانوا يلعبون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم عيد فاطّلَعتُ من فوق عاتقه فطأطأ لي منكبيه، فجعلت أنظر من فوق عاتقه حتى شبعت ثم انصرفت"(١٦). وروى البخاري عنها قالت: "دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنّيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه ودخل أبوبكر فانتهرني وقال: "مزمار الشيطان عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأقبل عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال "دعهما" فلما غفل غمزتهما فخرجتا".

---

١٢ – سورة القصص، الآية: ٧٧.

١٣ – سورة البقرة، الآية: ٢٩.

١٤ – سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

١٥ – سورة المائدة، الآية: ٥.

١٦ – رواه أحمد والشيخان.

وفي رواية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وإنّ اليوم عيدنا". وقد لعب السودان في يوم عيد بالدرقة والحراب وسمح النبيّ صلى الله عليه وسلم للسيّدة عائشة رضي الله عنها بأن تنظر وقال يومئذ "لتعلم يهود المدينة أن في ديننا فسحة، إني بُعثت بحنيفية سمحة"(١٧). وجاء في حديث أبي رافع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "كنت ألاعب الحسن والحسين بالمداحي" وهي أحجار كانوا يحفرون لها حفيرة، ويدحون ـ أي يرمون ـ فيها بتلك الأحجار، فإن وقع الحجر في الحفر فقد غلب صاحبها، وهي تشبه لعبة "البليارد" المعروفة الآن. وقد سئل ابن المسيِّب عن الدحو بالحجارة، فقال: لا بأس به"(١٨). وقد ورد بالأثر: "لاعب ابنك سبعا، ثم أدّبه سبعا، ثم صاحبه سبعا، ثم دع حبله على غاربه". إضافة إلى ما ورد من مزاحه صلى الله عليه وسلم(١٩) ومداعبته(٢٠)، ورؤيته للّعب بالحراب(٢١)، وممارسته المصارعة، وأمره بالغناء في الأعراس(٢٢) وغير ذلك من وسائل وأسباب الترويح عن النفس(٢٣).

أما دليل الآثار:

فقد تواترت الآثار بممارسة السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم لأسباب الترويح عن النفس كالمسابقة بالرمي(٢٤) والضرب بالدف في الأعراس(٢٥) وإنشادهم الشعر(٢٦) والمسابقة بين الخيل(٢٧) والصيد(٢٨) وسماع الغناء المباح(٢٩)، والمداعبة وغير ذلك من أسباب الترويح عن النفس.

---

١٧ – رواه ابن السراج من طريق أبي الزناد عن عروة عن عائشة.

١٨ – ابن الأثير: **النهاية**، ج١، ص١٠٦، بيروت، وانظر **تفسير المنار**، ج١، ص٢٤٨، القاهرة، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

١٩ – **صحيح البخاري**، ٤٤/٨ وما بعدها، **صحيح مسلم** ـ وكتاب الفضائل، **مسند أحمد**، ٢٥٤/٣، تحقيق عبدالله الدرويش، دارلفكر.

٢٠ – **السنن الكبرى** للبيهقي: ١٨/١٠.

٢١ – **صحيح البخاري**: ٩١/٦.

٢٢ – **سنن أبي داود**: ٣٤٠/٤ وما بعدها دار الفكر، **سنن الترمذي**: ٢٤٨/٤، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض.

٢٣ – **صحيح البخاري**: ٢٥٥/٩.

٢٤ – المصدر السابق، ٢٥٥/٩.

٢٥ – ابن قدامة المقدسي، **المغني**: ١٧٦/١٠ وما بعدها، القاهرة، هجر، ١٤١٢هـ/١٩٩٤م.

٢٦ – المصدر السابق، ٣٦٨/٩.

٢٧ – المصدر السابق، ٣٦٨/٩.

٢٨ – **صحيح البخاري**: ٦١٣/٩.

٢٩ – **السنن الكبرى**، للبيهقي: ٢٤٨/١٠، دار الفكر.

أما دليل المعقول:

فمن باب أن الأصل في الأمر الإباحة، ولم يرد بتحريم أسباب الترويح عن النفس نص، ولا ما هو في معنى المنصوص عليه فتبقى على الإباحة، فاللهو البريء كالتنزّه في البساتين واللعب المباح، والسماع المباح، ونحو ذلك مباح بالجزء، بمعنى: لو فعله المكلّف في بعض الأوقات وفي بعض الحالات فلا حرج فيه(٣٠).

كما أن الترويح عن النفس من مقاصد الشريعة الإسلامية فيما يعرف بالمصالح الكبرى للعباد: الضروريات، الحاجيات، التحسينات(٣١). ويتصل الترويح عن النفس أصلا بالحاجيات أي الأمور التي يحتاج إليها الناس لرفع الحرج والمشقة عنهم، وإذا فاتت لا يختل نظام الحياة ولكن يلحق بالناس المشقة والعنت والضيق، ويتصل الترويح عن النفس ـ كذلك ـ بالتحسينات وهي التي تجعل أحوال الناس تجري على مقتضى الفطرة السليمة.

إلا أن هناك ضوابط وقواعد شرعية للترويح عن النفس تجب مراعاتها والتنبيه عليها والتنويه بها، أهمها: ألا يتوصّل بالترويح عن النفس إلى محرّم شرعا، فلو رسم أجساداً عارية بأوضاع مثيرة فهو حرام، ولو نظم شعرا يحضّ على الفسق والفجور ويثير الغرائز وينشر الموبقات فهو حرام. وألا يترتب على الترويح فعل مفسد: ومثاله إذا أدى الاشتغال والتلهّي بالغناء المباح أو المعازف وما أشبه إلى ترك الصلاة وذكر الله تعالى أو أنفق المرء ماله في السياحة والاصطياف ولم يؤد شعيرة أو فريضة الحج فهو حرام فإن "دفع المفاسد مقدّم على جلب المصالح". كما أنه يجب ألا يترتب على الترويح عن النفس مضرّة بالغير، إضافة إلى مراعاة الأحكام الشرعية الثابتة أي عدم ترك الواجبات، وعدم فعل المحرّمات ابتداء وذاتا.

الإسلام والضحك:

كذلك لا خلاف في إباحة الضحك(٣٢) ـ في الجملة ـ ووردت في النصوص الشرعية ألفاظ ومعاني ودلالات الضحك في التبسّم، السرور، البِشْر، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا** ﴾(٣٣)، وقوله: ﴿ **فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ** ﴾(٣٤).

---

٣٠ – الشاطبي: **الفروق**، ٣٠/١ وما بعدها، القاهرة، ١٣٤٤هـ.

٣١ – الشاطبي: **الموافقات**، ٢٥٢/٢ وما بعدها، دار المعرفة، بيروت، والغزالي: **المستصفى**، ١٣٩/١ وما بعدها وانظر د. أحمد محمود كريمة: **الترويح عن النفس: دراسة فقهية**، ص ٢٨، ٢٩، القاهرة، عام ٢٠٠٢م.

٣٢ – الضحك من الآداب الشرعية: التبسّم، أو الضحك دون القهقهة.

٣٣ – سورة النحل، الآية: ١٩.

٣٤ – سورة هود، الآية: ٧١.

وتواترت أخبار الضحك فمن ذلك، ما روي عن عائشة رضي الله عنها: "... كان رجلا من رجالكم، إلا إنه كان ضحاكا"(٣٥)، وما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: "أن رجلا جاء إلى النبيّ صلي الله عليه وسلم، وهو يخطب، فقال يا رسول الله: رأيت فيما يرى النائم البارحة كأن عنقي ضربت فسقط رأسي فاتبعته، ثم أعدته مكانه، فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال: إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدّث به الناس"(٣٦).

وما روي عن عمر رضي الله عنه "ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أحسن الناس ثغراً"(٣٧). وكذلك ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا، أرسلني يوماً لحاجة، فخرجت حتى مرّ علي صبيان يلعبون في السوق، فإذا برسول الله صلي الله عليه وسلم قابض بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك، وقال: يا أنيس إذهب من حيث أمرتك"(٣٨).

ولكن هناك ضوابط شرعية للضحك مثل: التوسط في الضحك، فلا ينبغي أن يكون الإنسان في جميع أموره هازلا، يعيش بقلب أماتته كثرة الضحك، ويفتقد هيبته أمام أقرانه وذويه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أقلّ الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب"(٣٩). بل المطلوب أن يتوسّط الإنسان، لذا فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم ينه عن الضحك بل عن كثرته. وألا يكون سبب الضحك الاستهزاء بأمور الشرع، وألا يكون الضحك مبعثه السخرية وتحقير المسلم أو الاستهزاء بالناس(٤٠).

وهكذا فالمداعبة والضحك لهما أهمية بالغة في الحياة، فإن القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، فلا بد من أن نلتمس في بعض الأقوال والأفعال طرائف الحكمة، ولا مندوحة عن المزاح والتفكُّه، بما يروّح عن النفس، وقد قيل في الحكمة "أعط الكلام من المزاح بقدر ما يُعطى الطعام من الملح".

---

٣٥ – خرجه ابن سعد في **الطبقات**: ٢٧٤/١.

٣٦ – **صحيح مسلم** رقم: ٢٢٦٨، كتاب الرؤيا.

٣٧ – **صحيح ابن حبان**: ٦٩/٨، القاهرة، ١٣٥٤هـ.

٣٨ – **صحيح مسلم**، كتاب الفضائل رقم ٢٣١٠.

٣٩ – **سنن الترمذي** رقم ٢٣٠٥، **سنن ابن ماجة** رقم ٤١٩٣.

٤٠ – د. أحمد محمود كريمة: **الترويح عن النفس**، ص ١٧٥، ١٧٦.

أهمية الضحك والفكاهة:

من الجدير بالإعتبار أن الضحك ليس مجرّد ظاهرة بشرية اختص بها البشر، ولكنه أيضا فضيلة إنسانية خصّ الله عزّ وجل بها المخلوق البشري دون سائر المخلوقات، يستطيع أن يواجه بها تحديات الزمن، وتقلباته، وصعاب الحياة، فضلا عما يتهدده من شبح الفناء، ويرين عليه من فكرة العدم أو حصار الموت. لذلك كان الضحك نعمة من نعم الله تعالى، بل هو من أجل نعم الله تعالى على ذلك المخلوق البشري. وعلى فلا وجود للضحك في الطبيعة، فالأشجار لا تضحك، والحيوان لا يعرف الضحك، والجبال لم تضحك في يوم من الأيام، وإنما البشر فقط هم الذين يضحكون، وهم وحدهم الذين يعرفون كيف يضحكون؟

وقد وضعت تعريفات كثيرة للإنسان، عرّفه بعضهم بأنه الحيوان الناطق، وعرّفه البعض الآخر بأنه الحيوان المتدين، وعرّفه الآخرون بأنه الحيوان التاريخي أو الحيوان الذي له تاريخ وعنده شعور به، أو الحيوان الرامز صاحب اللغة والرمز، ويمكن تعريفه أيضا بأنه الحيوان الضاحك، خاصة وأن الفكاهة والهزل والمرح والدعابة والملحة والنادرة ما هي إلا ظواهر إنسانية من فصيلة واحدة، فطره الله تعالى عليها ليواجه بها حالات الحزن والألم، والتعاسة والقلق، وغيرها مما ينتابه في رحلة الحياة، وهذا ما عبّر عنه الحكيم الألماني نيتشه بقوله: "إننى لأعرف تماما لماذا كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك؟ فإنه لما كان الإنسان هو أعمق الموجودات شعوراً بالألم، كان لا بد له من أن يخترع الضحك"(٤١).

ومن هنا لم يكن الضحك ذا وظيفة نفسية هامة فحسب لتحقيق التوازن العاطفي لدى الفرد، بل إن وظيفته تتجاوز ذلك إلى تحقيق نوع من التكامل النفسي والاجتماعي في الوقت نفسه، فالضحك بمقدار ما له من وظيفة نفسية له دلالته الاجتماعية، وله أيضا ظاهريته الجمالية، مما حدا ببعض الفلاسفة إلى القول بأن "الضحك .. هو الإنسان نفسه".

أما الفكاهة (Humour) فقد جاء في لسان العرب: "وفكه القوم بالفاكهة: أتاهم بها. والفاكهة أيضا: الحلواء على التشبيه. وفكههم بملح الكلام: أطرفهم، والاسم الفكهة والفاكهة، بالضم، والمصدر المتوهم فيه الفعل الفكاهة. والفاكهة، بالفتح مصدر فَكِهَ الرجلُ، بالكسر، فهو فَكِهٌ إذا كان طيّب النفس مزّاحا. والتفاكه: التمازح. وفاكهت القوم مفاكهة بملح الكلام: المزاح، والمفاكهة: الممازحة، والفكِه: الطيّب النفس"(٤٢).

---

٤١ – مصدر السابق، ص ١٧٧.

٤٢ – ابن منظور: **لسان العرب**، بيروت، عام ١٩٦٨م.

والفكاهة جوهرها الخيال المضحك أو تعبيراته، وهي كذلك محاولة لأن يكون المرء متفكّها، وهي تتعلق كذلك بشيء معيّن فعل أو قول أو كتابة يجري تصميمه بحيث يكون مضحكا ومثيرا للبهجة. أما المضحك فقد ورد في لسان العرب ما يلي: الضحك: معروف، ضحك ضحكا ... وفي الحديث: "يبعث الله السحاب فيضحك أحسن الضحك"، جعل انجلاءه عن البرق ضحكا استعارة ومجازا، كما يفتر الضاحك عن الثغر، وكقولهم ضحكت الأرض إذا أخرجت نباتها وزهرتها.

ويقول العقاد متحدّثا عن أنواع الضحك: هناك ضحك السرور والفرح، وهناك السخرية والازدراء، وهناك ضحك المزاح والطرب، وهناك ضحك العجب والإعجاب، وهناك ضحك العطف والمودة، وهناك ضحك الشماتة والعداوة، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة، وهناك ضحك المغرور وضحك المتشنّج، وضحك السذاجة، وضحك البلاهة، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطرار(٤٣).

ويرتقي الضحك كشكل من أشكال المتعة الذاتية، والتي يطورها الطفل الرضيع فتصبح منمية له جسميا ونفسيا، من خلال مشاعر الإشباع المصاحبة لها، كما أنه ـ مع الابتسام ـ يزوده بوسائل فعالة وعملية، ولها صفة العدوى ـ أي سرعة الانتشار ـ خلال عمليات الاتصال الصوتي الاجتماعي، ووفقا لما يقوله بعض العلماء، فإن الضحك يتعامل مع مدى واسع من الظواهر الاجتماعية، ربما بشكل يفوق اللغة اللفظية(٤٤). ويحدث الضحك استجابة للفكاهة لكنه قد يعمل بدوره كمثير يستثير أو يستصدر استجابة الضحك أو غيرها من الاستجابات "كالدهشة أو الغضب مثلاً" من الآخرين.

ولذلك يرى باحث معاصر(٤٥) أن الضحك ينبع من الفرح والبهجة، ولدى بعض آخر يكشف الضحك عن إدراكنا للتناقض، ولدى بعض ثالث يدل الضحك على العدوان، وقد وصل الأمر بالشاعر الفرنسي الشهير بودلير إلى أن يقول: "الضحك شيطاني الطابع، ومن هذا المنطلق هو أيضا إنساني على نحو عميق"، وهو ـ في رأينا ـ علامة كذلك على العظمة وكذلك على التعاسة اللامحدودة"(٤٦).

---

٤٣ – عباس محمود العقاد: **جحا الضاحك المضحك**، دار الكتاب العربي، بيروت، عام ١٩٦٩م.

٤٤ – Rocekelein, Jone (2002) ***The Psychology of Humor****; A Refernce Guide and Annotated Bibliography*, London, 1993, Greenwood press, p. 10.

٤٥ – د. شاكر عبد الحميد: **الفكاهة والضحك**، ص ٢٢، ٢٣، عالم المعرفة ـ العدد ٢٨٩ ـ يناير ٢٠٠٣م.

٤٦ – Mc Neill, D, *The Face,* N. y.,1998, *Lille*, Brown and company, p. 212.

وهناك أكثر من مائة نظرية حول الضحك، وكلها نظريات متداخلة، يعتمد بعضها على البعض الآخر بدرجة واضحة، وتركز هذه النظريات في مجملها على عوامل معيّنة تربطها بالضحك أو تربط الضحك بها، ومن هذه العوامل نجد مثلاً: الدهشة، التفوُّق، أو السيطرة، والتناقض في المعنى، والتنفيس عن الطاقة الزائدة، وغير ذلك من العوامل.

وقد ذكر أفلاطون أن الناس يضحكون من سوء حظ الآخرين، وقال أرسطو إننا نجد المضحك في النقائض غير المؤلمة لدى الآخرين، وتحدّث هوبز عن "البهجة المفاجئة المصحوبة بالفخر" والتي تؤدي إلى الضحك، وربط فولتير بين الضحك والاحتقار، وقال كَانْتْ إن الضحك محصلة لنحول التوقعات والتمنيات الكبيرة إلى لا شيء، فنحن نسعى إلى عظائم الأمور، ونلقى فقط بعض الفتات والصغائر، ويربط برجسون الضحك بذلك التناقض المدرك بين الحي والآلي الميكانيكي، وقال ديكارت إن الضحك ينشأ عن اختلاط الصدمة بالبهجة أو المرح المعتدل(٤٧).

سيكولوجية الضحك:

إذن الضحك له وظيفة نفسية في تخفيف أعباء الواقع وترطيب جدّية الحياة وإراحة النفس من كثافة المشكلات اليومية وإطلاق الذات من أَسْرِ التفكير العميق الجاد، لأنه على حدّ تعبير شارلاتو: إذا كانت الحياة هي الفردوس المفقود، فإن الضحك هو الفردوس المستعاد!

وربما كانت هذه هي الفكرة المحورية التي أدار عليها سيجموند فرويد نظريته في سيكولوجية الضحك، فعند هذا الطبيب النفسي الشهير في بحث له عن الضحك أنه نوع من الفعل الإرادي الذي يلجأ إليه الإنسان ليتحرر من جدّية الواقع ويعفي نفسه من أعباء الحياة ويتخلص من رباط العنق الاجتماعي الذي يلازمه طوال اليوم، وهذا معناه أن الفكاهة نوع من أنواع الصحة النفسية تساعدنا على الهروب من عناء الواقع و على الاستمتاع بلذة الحياة.

وعلى هذا الأساس ذهب فرويد إلى تقسيم الضحك إلى ثلاثة أنواع: النكتة والهزل والدعابة، كما ذهب في تفسيرها إلى القول بالقصد والغاية في القوى النفسية: فالنكتة فيها قصد وغاية على مستوى العاطفة، وفي الهزل قصد وغاية على مستوى الفكر، وأما الدعابة فالقصد فيها والغاية على مستوى الإحساس. على أن هذه الأنواع جميعا لا يقصد إليها الإنسان إلا بعد الطفولة، وهي السن التي لا تعرف المفارقات المضحكة، ولا تقدر على تفكير النكتة ولا تحتاج إلى الدعابة لتشعر بالسعادة.

---

٤٧ – المصدر السابق.

وغير سيجموند فرويد نجد كثيرا من علماء النفس المعاصرين ممن تناولوا قضية الضحك في جانبها النفسي، يفسّرونها بأنها نوع من تفريغ الطاقة، تتحرر فيه النفس من شتى مظاهر العناء والمعاناة، حيث تجد لها منفذا في الموقف الفكاهي أو الكوميدي. وهذا ما عبّر عنه س. برت في كتابه **سيكولوجية الضحك** بقوله: "إن الضحك عبارة عن انفعال نفسي يمكن أن يندمج في الموقف الهزلي أو الفكاهي فيولد لدينا استجابة الضحك"(٤٨). ويذهب س. برت في كتابه هذا إلى أننا نستطيع أن نميّز بين أنواع مختلفة من الضحك تبعا لنوع الانفعال الذي ينطلق متحررا من أسر الجهد أو حصار الإجهاد عن طريق الموقف الهزلي أو الفكاهي: فانفعال السخط أو الغضب يولد الفكاهة العدوانية والنادرة التهكمية والدعابة الساخرة، وانفعال الفرح أو البهجة يؤدي إلى توليد الملح الذكية والطرف البارعة التي تعتمد على المفارقة والتلاعب بالألفاظ.

وكما اهتم علماء النفس المعاصرين بتصنيف أنواع الضحك، اهتمّ علماء آخرون بدراسة جوانب مختلفة في الضحك: فذهب هـ. ج. إيزنك في كتابه **أبعاد الشخصية** إلى أن الضحك له ثلاثة جوانب: هي الجانب النزوعي، والجانب الوجداني، والجانب الإدراكي، وفقا لتقسيم الفعل البشري إلى إدراك ونزوع ووجدان. على أنها الجوانب الثلاثة التي يندمج أحدها والآخر اندماجا تكامليا فيما سماه إيزنك بكلمة "الهزل" بوجه عام. وأما العنصر الوجداني فهو الذي يطلق عليه اسم الفكاهة، كما يطلق اسم النكتة على العنصر النزوعي واسم الكوميديا على العنصر الإدراكي. وعنده أن هذه العناصر يتداخل بعضها في بعض تداخلا وظيفيا، وتتفاعل فيما بينها تفاعلا ديناميا، وهي في النهاية ليست أكثر من مبادئ للتصنيف تسمح بتفسير انفعال الضحك في ضوء أبعاد الشخصية البشرية بقصد الوقوف على ما ينطوي عليه هذا الانفعال النفسي من عناصر عرفانية وعناصر انفعالية وعناصر إرادية، القصد منها جميعا إيجاد حالة من حالات التكيّف يستطيع معها بذلك الكائن البشري أن يتوازن هو نفسه والآخرون من حوله، وعلى ذلك فالضحك في رأي إيزنك إنما هو نوع سام من أنواع التكيّف أو هو كما سمّاه التكيّف السّامي!

الفكاهة والضحك في التراث العربي:

وقد كان موضوع الفكاهة والضحك ـ وما زال ـ من الموضوعات التي أثارت الاهتمام في التراث الإسلامي، وقد جاء ـ كما مرّ بنا ـ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ـ كان من أفكه الناس، وكان قليل الضحك، وإذا ضحك وضع يده على فيه، وإذا تكلّم تبسّم، وإذا مزح غضّ بصره، وكان فيه دعابة

٤٨ – جلال العشري: **الضحك فلسفة وفنّ**، ص ٢٢– ٢٤، بتصرّف ـ دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

قليلة. ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا أمزح ولا أقول إلا صدقا". وروي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: "قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: لا تحْقِرَنَّ من المعروف شيئا ولو أنك تلقى أخاك بوجه حسن". و "تبسمك في وجه أخيك صدقة" وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "مزح صلى الله عليه وسلم فصار المزح سُنَّة، وكان يمزح فلا يقول إلا حقّا".

ومن هنا لم يكن غريبا أن يقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "روّحوا القلوب واطلبوا لها طرف الحكمة، فإنها تملّ كما تملّ الأبدان" وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات مرة "لأكلمن رسول الله لعله يضحك". وعن الأصمعي قال: سمعت الرشيد يقول "النوادر تشحذ الأذهان وتفتق الآذان". وهناك أقوال كثيرة جمعها ابن الجوزي وغيره تنادي بأن يعطي الإنسان نفسه حقها من الراحة والمتعة والمزاح والضحك. وقال عنها ملخصا موقف العرب والمسلمين هنا: "وما زال العلماء والأفاضل يعجبهم الملح ويهشُّون لها، لأنها تحجم النفس وتريح القلب من كدِّ الفكر"(٤٩).

وقد لخّص الإمام أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ) في **إحياء علوم الدين** وجهة النظر الإسلامية في هذا الشأن حين قال: "وأما المزاح فمُطَايَبَةٌ وفيه انبساط، وطيب قلب فلم يندّ عنه، فاعلم أن المنهي عنه الإفراط أو المداومة، أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب، والهزل فيه واللعب مباح، ولكن المداومة عليه مذمومة، أما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب، وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار". ويقول كذلك: "إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله وأصحابه، وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقا، ولا تؤذي قلبا، ولا تفرط فيه، فلا حرج عليك فيه"(٥٠).

الضحك والتراث:

يقول عبد الغني العطري في كتابه **أدبنا الضاحك:** "راجت سوق الضحك في صدر الإسلام رواجا عظيما،وصار للظرفاء والمضحكين شأن أي شأن، فقد أخذ الخلفاء والأثرياء، يدنون من مجالسهم أهل الظرف والنادرة، ليمتعوا أنفسهم بالنكتة الحلوة، والجواب اللاّذع، والفكاهة التي تنتزع الضحك من الوجوه العابسة.. فلما كان العصر العباسي وازدادت هذه الومضات ظهورا بازدياد الإقبال على مجالس الشراب والمرح .. وارتفاع أقدار المضحكين والظرفاء .. كان من الطبيعي أن يندفع الكتّاب والمؤلّفون إلى وضع المصنّفات والتآليف، التي تجمع بين دفاتها النادرة المستملحة، والنكتة البارعة، على أن أسبق الجميع وإمامهم في ميدان الأدب الضاحك دون ريب هو الجاحظ فقد سبقهم

---

٤٩ – ابن الجوزي: **أخبار الحمقى والمغفّلين**، ص ١٨، بيروت، دار الآفاق الجديدة، عام ١٩٨٠م.

٥٠ – من خلال زاهر أبو داود: **الفكاهة الهادفة في الإسلام**، ص ٧٣، دار المحبة، دمشق عام ١٩٩١م.

إلى ذلك، وليس بينهم من يجاريه أو يحاكيه بالجد، ويضمن كل سخرية لاذعة، وفكاهة لم يستطع أحد من كتّاب العربية أن يدانيه فيها حتى اليوم"(٥١).

الضحك والفكاهة عند الجاحظ:

وفي الواقع تتجلّى روح السخرية والضحك في جنبات وثنايا كتابات الجاحظ عامة(٥٢)، وفي كتابه **البخلاء** خاصة، والأصل في هذه الروح، كما يرى طه الحاجري، يرجع إلى طبيعة الجاحظ ومزاجه "فقد كان رجلا مرحا، متهلل الخاطر، منطلق الوجه، نزاعا إلى الضحك، ومن ذلك ما نجده لديه من الدعوة إلى الضحك والمزاح والفكاهة والدفاع عنها، ورد ما يعترض به عليها"(٥٣).

وقد ناقش ـ على ما يذكر الدكتور شاكر عبد الحميد ـ النقّاد والباحثون العرب أسباب ولع الجاحظ بالسخرية والفكاهة، فأرجعها بعضهم إلى ظروفه الشخصية، مثل جحوظ عينيه، ومظهره الخارجي غير الجذّاب، وأرجعها بعضهم الآخر إلى عوامل عدة، منها "المدينة التي عاش فيها، وهي البصرة الزاخرة بصنوف الأجناس، وألوان العقول وأنواع الثقافات، وكذلك إلى "روح الاعتزال، والمناظرة التي كانت غالبة عليه، ثم هذه المرانة والألفة العقلية التي امتاز بها" وقد أسهم ذلك كله في توافر روح "الشك" وأسبابه التي كانت متوافرة لديه بفعل تلك الحياة وذلك المجتمع(٥٤).

ونحن نرجع روح السخرية لدى الجاحظ، ويتفق معنا كثير من الباحثين، إلى ذلك التنوع والثراء الثقافي الذي كان موجودا في عهده، حيث تعددت الفرق الدينية، وكثرت المذاهب وتنوعت الملل، كما تنوعت الثقافات الوافدة من هندية ويونانية وفارسية إلخ، وكثرت طوائف المثقفين في الدولة، فكان هناك الشعراء والأدباء والكتّاب والمترجمون، والمنشدون والمغنّون ... إلخ.

---

٥١ – العطري عبد الغني: **أدبنا الضاحك**، ص ٥٥، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٤م.

٥٢ – هو عمر بن بحر بن محبوب الكناني، ولقب بالجاحظ و "الحدقي" لبروز عينيه، ولد بالبصرة خلال العقد السادس من القرن الثالث الهجري، ومات خلال العقد السادس من القرن الثالث الهجري، ومن أشهر مؤلفاته **البيان والتبيين** و **كتاب الحيوان** و **البخلاء** امتاز بالروح الفكهة المرحة التي تمزج الجدّ بالهزل وتخفّف أعباء الحياة، صاحب مدرسة على مذهب المعتزلة في علم الكلام.

٥٣ – الجاحظ: **البخلاء**، تحقيق طه الحاجري، ص ٥٣، ٥٤، دار المعارف القاهرة، عام ١٩٩١م.

٥٤ – المصدر السابق، ص ٥٥.

وهذه الثقافات المتعددة، والنحل المتفاوتة، والمذاهب المتضاربة، والمدارس المتنوعة والطوائف المتباينة، كان من المحتّم أن تتعارك وتتصارع، وينتصر كل فريق لرأيه، ومدرسته ومذهبه، فيشيع الهجاء وتنتشر السخرية، ويكثر الهمز واللمز(٥٥).

ويدور كتاب **البخلاء** حول "نودار البخلاء، واحتجاج الأشِحَّاء" فقد اجتذب البخل الذي هو خاصية سلوكية ممقوتة، هي نقيض الكرم الذي هو سمة عربية محبّذة ومفضّلة، يتباهى بها القاصي والداني، وللبخلاء نوادرهم التي يرصدها الجاحظ، بعضها حقيقي يأتي عن قصد ونية وبلا مواربة أو تخفّي، وبعضها الآخر تظاهرٌ على سبيل المزاح والملاطفة، وما البخل في كتاب الجاحظ إلا تكأة للحديث عن الضحك والمزاح، ومن خلال عرض مجتمع شاع فيه البخل إلى جانب الكرم، والإمساك في مواجهة البذخ والسرف.

ويرى الباحث شاكر عبد الحميد أنّ من دوافع الجاحظ إلى أن يكتب كتابه هذا أنْ يحذر من الإغراق في الجدّ والإسراف في الجدّية، وهدفه أن يجعل الهزل وسيلة للوصول إلى الراحة، وفي الراحة يخلو البال، وتتبدد الهموم، وتنجلي صفحة القلب، وتتبدد شواغله، فينعم بالاستجمام والهدأة التي يبتعد خلالها عن ذلك اللهاث المتواصل بفعل شؤون الحياة وشجونها. ويكون هذا الابتعاد من أجل الاقتراب، وهذا الغياب من أجل الحضور، حضورا متجددا إلى ساحة الحياة وأعمالها ومباهجها، أما المواصلة المستمرة فتجلب السأم "فإن للجد كدا يمنع من معاودته" كما يقول الجاحظ، فتعزف النفس عن الاستمرار، ويصاب الذهن بالملالة والانهيار، وكأنّ الجاحظ قد توقّع منذ قرون عدةٍ ما يقوله العلماء الآن عن ذلك الكفّ أو التعب الذهني الذي يتراكم بفعل استمرار النشاط وأهمية الراحة حتى يتبدّد هذا التعب أو الكفّ العصبي، فيستطيع الإنسان أن يواصل حياته بروح جديدة أكثر إقبالا وأكثر تجددا.

يتحدث الجاحظ بعد ذلك عن ملح البخلاء ورسائلهم وكلامهم وخطبهم وأعاجيبهم وكيف يَلْوُونَ الحقائق، ويغيّرون المعاني، ويسمُّون البُخْلَ "إصلاحا" والشُّحَّ "اقتصاداً"، ولماذا أصبحوا مولعين بالمنع، ونسبوا سلوكهم هذا إلى "الحزم"، وكيف وصفوا الكرم "بالتضييع" والجود "بالسرف" والأثرة "بالجهل"، وكيف وصفوا من "هَشَّ للبذل" بالضعيف، و لِمَ زهدوا في الحمد، وأصبحوا غير مهتمين بالذم، ثم إنه ينقض زيف دعواهم، ويرى في سلوكهم تناقضا وازدواجية خاصة فيقول: "بل كيف

---

٥٥ – عبد الحليم محمد حسين: **الجاحظ الأديب الساخر**، ص ٢٠، طرابلس المنشأة الشعبية، ١٩٨١م.

يدعو إلى السعادة من خص نفسه بالشقوة، فكيف ينتحل نصيحة العامة من بدأ يغشّ الخاصة، وفي هذا التركيب المتضاد والمزاج المتنافي، وما هذا العناء الشديد الذي إلى جنبه فطنة عجيبة"(٥٦).

هكذا يكون البخل ـ في رأي الجاحظ ـ من أبرز سلوكيات البشر اشتمالا على التناقض في المعنى والازدواجية في السلوك، فالبخيل يظن أنه يتجه ببخله نحو السعادة، سعادة الجمع والكنز، في حين أنه لا يحظى في النهاية إلا بالشقوة، شقوة الحرمان، وذلّ الامتلاك الذي لا ينفع صاحبه، بل قد يذهب ما يكنزه البخيل إلى بعض من يكرههم من أقاربه. كيف يستطيع البخيل أن ينصح الناس وهو يغش نفسه؟ كيف يجمع البخيل بين هذا التركيب المتضاد في سعيه المحموم نحو المال أن يسعد نفسه؟ كيف يشقى نفسه بنفسه؟ كيف يكون فطنا إلى هذا الحد وغبيًّا إلى هذا الحد أيضا؟ هذا التناقض وجده الجاحظ مدعاة إلى الضحك والسخرية من غباء الأذكياء هذا وشقوة المعتقِدين أنهم سعداء أو في سبيلهم إلى السعادة(٥٧).

وعلى الرغم من حديث الجاحظ عن البكاء ومزاياه وخصائصه ومثالبه، يعود وينطلق، فيمدح الضحك والضاحكين، فالضحك شيء جميل، فهو هبة من الله الجميل الذي يحب الجمال، فالضحك صفة الله تعالى، وصفة محبّبة يطلقها البشر على المباني الجميلة التي يرونها ضاحكة والقصور والحلي الجميلة، والزهور المبتسمة، يقول الجاحظ في كتابه **البخلاء** ممتدحا الضحك والضاحكين: "ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك، لما قيل للزهرة والجرة والقصر المبني: كأنه يضحك ضحكا. وقد قال الله جلّ ذكره ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا** ﴾. فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت، ألا يكون موقفه من سرور النفس عظيما، ومن مصلحة الطباع كبيرا، وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبيّ، إن به تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته".

وتلخّص هذه الفقرة مذهب الجاحظ في الضحك وتصوره له ولفوائده، ويمكن تلخيص العناصر المتضمنة في هذا التصور على النحو التالي:

١- إن الجاحظ قد فاضل بين البكاء والضحك، واختار الضحك وفضله على البكاء،وربط بين الضحك والحياة، وبين الموت والبكاء، وبذلك انتصر للضحك والحياة في ثقافة تمجّد البكاء والخوف والموت والحزن.

---

٥٦ – الجاحظ: **البخلاء**، ص ٢.

٥٧ – د. شاكر عبد الحميد: **الفكاهة والضحك**، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

٢- إنه ربط بين الضحك والجمال والخلق الإلهي، فالضحك والبكاء فعلان منسوبان إلى الله، فهو سبحانه الذي يحيي ويميت ويضحك ويبكي، ولا ينسب إليه إلا كل ما هو خير، ضحكا وبكاء، ومن ثم فالضحك فعل خير جميل مقبول ومطلوب ومباح ومحبب، وهو ليس شرا وليس قبيحا، فالله سبحانه لا يضيف إلى نفسه القبيح، والضحك ليس مفسدة، كما يقول بعض ضيقي الأفق جامدي العقول.

٣- الضحك ـ فيما يروي الجاحظ ـ فطري في الإنسان، فهو شيء في "أصل الطباع في أساس التركيب" وظهوره علامة طيبة، وهو أول خير يظهر لدى الإنسان، فهو بُشْرَى واستبشار وتفاؤل.

٤- وللضحك تأثيراته الإيجابية الكثيرة في الشخصية في رأي الجاحظ، فبه "تطيب النفوس"، كما أنه يساعد على النمو الجسمي، وعلى الاتزان في الشخصية، إنه علَّة سرور، ومادة الأمل منذ الطفولة المبكرة.

٥- للضحك دلالاته الاجتماعية أيضا، وهي دلالات ترتبط بالتفاؤل والاستبشار وسيكولوجيا الأمل، وكل ما يجعل الإنسان مبتهجا وسعيدا، وقد تجلّى ذلك ـ كما لاَحَظَ الجاحظ ـ في وجود أسماء عربية عدة قام العرب بإطلاقها على أبنائهم، فقال: "وأفضل خصال الضحك عند العرب، تسمي أولادها بالضاحك وببسّام وبطلق وطليق" وقد ضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم ومزح، وضحك الصالحون ومزحوا، وإذا مدحوا قالوا: هو ضحوك السنّ، وبسّام العشيّات، وهشّ إلى الضيف، وذو أريحية واهتزام، وإذا ذمُّوا قالوا: هو عبوس وهو كالح، وهو قطوب، وهو شيأم المحيا، وهو مُكْفَهِرّ أبدا، وهو كريه، ومنقبض الوجه، وحامض الوجه، وكأنما وجهه بالخل منضوح"(٥٨).

هكذا يكون الضحك ـ إذن ـ موجودا في أسماء الأبناء، وفي صفات الأنبياء والصالحين، وفي نعوت المديح المطلوبة المحبوبة، وفي وصف كرماء القوم ذوي الأريحية والاهتزام. وهكذا يكون الضحك ملازما لكل ما يمكن أن يقبل عليه المرء ويفرح، في حين يكون العبوس صانعا علامة أخرى مناقضة في وجوه أصحابه وسلوكياتهم، هؤلاء الذين يوصفون عندئذ بالعُبُوس والكلاحة والتقطيب والاكفهرار

٥٨ - الجاحظ: **البخلاء**، ص ٧.

والكراهية والانقباض، وكذلك الوجه الحامض الذي كأنما خالطه خل فأصبح يثير مشاعر شبيهة بما يُحدِث الخل من تقزّز أو انقباض في الغم(٥٩).

ولكن الضحك لدى الجاحظ ليس أمرا مطلقا، ولا سلوكا منطلقا بلا حدود ولا لجام، فلكل مقام ضحك وابتسام، وللضحك نفسه موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار متى جازهما أحد، وقصر عنهما أحد، صار الفضل خطلا، والتقصير نقصا، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك، صار المزح جدا، والضحك وقارا"(٦٠).

وهكذا يكون الضحك والمزاح، وما شابههما من أمور المرح والبهجة بمقدار، وفي مواضعهما المناسبة، وعلى الإنسان ألا يقع في الإفراط فيغرق في الضحك، ولا التفريط فينسى حظه من الدنيا ومتاعها. إنه ينبغي أن يلزم حد الوسطية المعروف، حتى لا يقع في الخطل عند الإفراط، أو يقع في النقص والتقصير حين التفريط، ويكون غاية الأمر وعماده هو النفع العام والفائدة، فالضحك لا يكون للضحك، بل للراحة ثم العودة إلى مواصلة العمل والحياة.

ومن هنا فالضحك ـ في رأي الجاحظ ـ ليس نقيضا للجدّ، بل هو حالة من حالاته، وتجلّ من تجلياته وضرورة من ضروراته. فمن دون الضحك لن يكون ثمّة جِدٌ حقيقي، ولا وقار غير متصنّع. إن الضحك هو الذي يجعل من الجد أمرا حقيقيا، لأن صاحبه، يكون به، هكذا، إنسانا حقيقيا، لا جمادا صخريا، ولا آلة تلقي بالكلمات ولا تعي دلالاتها.

وبعد هذه المقدّمة الوافية التي يطرح الجاحظ فيها نظراته الخاصة إلى الضحك وأهميته، يبدأ فيعدد أصناف البخلاء وأنماط سلوكهم وحكاياتهم ونوادرهم وطرائفهم، وهكذا يتحدث عن "البخيل المخدوع، والبخيل المفتون، والبخيل المضياع، والبخيل النفاج، والبخيل الذي ذهب ماله في البناء والذي ذهب ماله في الكيمياء، والذي أنفق ماله على خائب، والذي أنفقه في طلب الولايات، والدخول في القبالات، وكانت فتنته بما يؤول من الإمرة فوق فتنته بما حواه من الذهب والفضة"(٦١).

ونلاحظ دائما أن الجاحظ في كتابه **البخلاء**، على الرغم من أنه لا يحرّم الضحك ولا المزاح، إلا أنه يحذّر من المبالغة فيهما ويربطهما بالسماحة والبشر والطلاقة والسهولة، وبذلك يكون الابتسام

---

٥٩ – انظر: د. شاكر عبد الحميد: **الفكاهة والضحك**، ص ٢٦٨، ٢٦٩ بتصرّف.

٦٠ – الجاحظ: **البخلاء**، ص ٧.

٦١ – الجاحظ: **البخلاء**، ص ١٥٩.

والضحك والفاكهة والمزاح من أحجار البناء الأساسية في تكوين العلاقات الإنسانية الإيجابية، حيث إفشاء السلام والبشر عند التلاقي، والتزاور، والتصافح والتهادي، من الأمور الطيّبة في بناء مجتمع إنساني يقوم على أساس المحبّة، لا العداوة، والتفاؤل، لا على التشاؤم، ولا القساوة، والجهامة، وعلى الأمل، لا اليأس أو القنوط، وعلى الابتسام والبهجة لا على العبوس والانقباض. ولذلك يؤكد الباحث شاكر عبد الحميد(٦٢) أن الجاحظ من خلال ذلك كله قام ببلورة واحدة هي من أكثر الرؤي العربية عمقا وتبلورا حول موضوع الفكاة والضحك.

الأدب العربي والضحك:

لا شك في أن كتب التراث العربي قد حفلت بالملح والفكاهات والنوادر المرحة، كما حفلت بالأسباب والوظائف التي من أجلها كتب مؤلفوها مادتهم الفكاهية، كما أن مقدمات بحثهم تشير إلى بيان أهمية المزاح والفكاهة في الترويح عن النفس "فما زال العلماء والأفاضل تعجبهم الملح ويهشّون لها لأنها تجم النفس، وتريح القلب من كدّ الفكر(٦٣)، كما وضعوا للفكاهة أصولا وفصولا، فقالوا "ولاختيار المطايبات والمداعبات، وما انخرط في سلكها من الملح والمزاح أصول لا يخرج فيها عنها، وفصول لا يخرج بها فيها، وقد يستند الحار المنضج، والبارد المثلج لأن إفراط البرد يعود به إلى الضد"(٦٤). كما اهتموا وبيّنوا شروط المسامر والمنادر(٦٥) إلى غير ذلك مما يتعلق بالملح والنوادر.

ولقد عرفت العصور جميعا، وسائر المجتمعات البشرية أنواعا من الناس يُهيِّئون مادة للدعابة والهزء معا، ويشتهرون بكل طريف نادر من هذا القبيل، فيعجب بهم الناس، ويتتبعون أخبارهم ويتوقون إلى سماع ما قيل عنهم كما ينسبون إليهم ـ بعد ذلك ـ كل ما يسمعون من طرف وملح ونوادر، هي بدورها سريعة الانتشار والحفظ لما فيها من مفارقات تثير الانتباه والضحك جميعا. ولا شك في أن النادرة ـ كانت ـ ولا تزال ـ أداة للتسلية والتسرية عن الناس سواء زحمتهم هموم الحياة، وكربات العيش، أو ضيّقت عليهم حدود الأحكام وسدود القوانين، وقد تجري النوادر وتصنع، وتطلب، حُبًّا لها من غير ضيق بشيء، بل رغبة في الجانب المشرق الباسم في مسح الحياة، باعتبارها رواية هزلية كبيرة كما يقولون.

---

٦٢ – د. شاكر عبد الحميد: **الفكاهة والضحك**، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

٦٣ – ابن الجوزي: **أخبار الحمقى والمغفلين**، ص ٤.

٦٤ – الحصري: **ذيل زهر الآداب أو جمع الجواهر والنوادر**، ص ٦.

٦٥ – المصدر السابق، ص ٧.

والنادرة المرحة إنما تنشأ من المفارقات والأخطاء والحماقات والأكاذيب والمبالغات والحيل وأسباب الخداع والعبث والمزاح والتصرفات الذكية والأقوال الدالة على سرعة الخاطر والأجوبة المسكتة أو اللاذعة، وبعض النوادر الشعبية تتخذ أحيانا زي الحكاية ذات المغزى أو جوامع الكلم أو اللغز أو التورية وما إلى ذلك من المغالطات المنطقية أو الحيل البيانية.

ولذلك راجت في التراث العربي والإسلامي، ويرى الدكتور عبد الحميد يونس فيما نسب إلى بعض الشخصيات المرحة من نوادر البخلاء تستدعي فضيلة الكرم، أما الخروج على المألوف، والاستجابة الشرطية للأحداث، بتصرفات لا تصدر عن التعقل أو تخرج على حدود المألوف والمنطق، فإن أكثرها يدل على حكمة شعبية، تؤثر التخلص من التوتر بما يشبه الرسم الكاريكاتوري"(٦٦).

ويزخر الأدب العربي بنماذج كثيرة من هذه الشخصيات مثل: أشعب بين جبير(٦٧) أمير الطفيليين (١٥٤هـ) ومزبد المديني الذي كان إلى جانب فكاهاته ومجونه يُرْمَى بالبخل الشديد(٦٨) وابن الجصاص، وكذلك كانت نوادر جحا، ونودار أبي نواس في المجون، وكذلك نودار أبي دلامة وابني الحارث جمير وأبي العبر وبهلول .. إلخ.

جحا ونوادره الفكاهية:

وفي الحقيقة نجد هذه النوادر تعكس إلى جانب نزوعها إلى السخرية تجسيما حيًّا، لما يريده الوجدان القومي العربي من خلال إبداعه الفنّي الفكاهي، من ترسيب للتجربة أو الحكمة العملية، ونقد للحياة الاجتماعية، ولهذا لم تشأ الأمة العربية التي أبدعت هذا النموذج ـ كما يذكر أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس(٦٩) ـ أن تجعل هذا النموذج أو المثال سلبيا أو منعزلا ... وإنما جعلته نموذجَ رجلٍ عادي من الناس الذين لهم مشاعرهم ومواقفهم وتجاربهم، عليه أن يسعى في سبيل العيش، ويختلف إلى الأسواق، ويرحل إلى الأمصار، ويلتقي بالحكّام، ويعايش العامة ويتحدث إليهم ويختلف معهم على تباين طبقاتهم ومراتبهم، وله معهم نوادره، ولهم معه نوادرهم التي تجسم فلسفته الخاصة، بل تجسم ما يريده الشعب العربي الذي تبنّاه في إبداعه الشعبي على مرّ أجيال متعاقبة متصلة ومستمرة، وأثراه بإضافاته الكثيرة من واقع تجربته ورؤيته وفلسفته، وأَوْقَفَهُ من قيمه ومعاييره

---

٦٦ – د. عبد الحميد يونس: "ملامح البطل في الأدب الشعبي"، **مجلة الهلال**، ص ٢٤، القاهرة، عام ١٩٧١م.

٦٧ – انظر ترجمته في **كتاب الأغاني** و **تاريخ بغداد**.

٦٨ – انظر ترجمته في **الوفيات**، و **نثر الدرر**.

٦٩ – د. عبد الحميد يونس: **دفاع عن الفولكلور**، ص ٢٠٣، الهيئة المصرية العامة للنشر، عام ١٩٧٣م.

ومثله السلبية أو المختلفة مَوْقِفَ المتهكّم بها الساخر منها، حتى عُدَّ بحق ناقدا اجتماعيا للحياة العربية، له من الشمولية والمرونة والقدرة على التطور ومسايرة الزمان والمكان.

وذلك في أسلوب مميّز يجمع بين الفاكهة والسخرية والحكمة في آن واحد، ومن ثم أصبح جحا المتحدث بلسان الشعب العربي في كل شأن من شؤون الحياة، "فهو الواعظ، والفقيه، والفيلسوف والحكيم، والساخر، والضاحك، وما شئت من كل ما تجيش به عواطف الشعب نحو أحداث ووقائع الحياة(٧٠).

وإجمالا فإن النتيجة أو الدلالة التي تهدف إليها نوادر جحا واحدة، فغايتها تجسّم هذه العيوب الاجتماعية والخلقية بغية الإصلاح والوصول بها إلى الكمال الممكن، ونقد الأنماط الاجتماعية في المجتمع وما أكثرها. ولذلك نحن نتفق مع الدكتور يونس في "أنه لم يكن جحا مخبولا أو ناقص العقل، ولكنه كان يتناول الأمور من أقرب الزوايا إلى الحق والواقع فيبدو مناقضا لصنيع الآخرين الذين لا يتصورون الحق قريبا ويمدون أبصارهم وبصائرهم إلى بعيد، كما أنه كان صريحا غاية الصراحة في التعبير عن نفسه، لا يشغل بَالَهُ لأنّ الإطار الاجتماعي كثيرا ما يفرض على الناس أن يسكتوا أو يرمزوا، وهذه الصفة تنطبق على أمثاله، فهو يستسلم دائما لرغباته في لحظاتها، وهذه الفلسفة الخاصة به تجلعه دائما بريئا من الخوف والكبت، وتبرزه أقوى من غيره، ولعلها هي التي جعلت شخصيته أقرب ما تكون إلى من يسقط عنه التكليف الاجتماعي(٧١).

ولعل أكثر ما يغيظ في الناس ويكون هدفا مغريا لسخريات هذا الرمز هو جانب الغفلة والحماقة فيهم، وما يؤدي إليه ذلك من قبولهم لكثير من بدهيات الوقائع والأمور في تبعية مطلقة دون تفكير أو تمحيص إلى حد "المحاكاة العمياء" أو ما يُسمِّيه البعض "بغريزة القطيع" وما ينجم عنها من مفارقات تكون مثارا للسخرية، وليس أقرب إلى احتواء هذه المقولة والتعبير عنها في المأثور الأدبي من النمط الجحوي الذي يستهدف أول ما يستهدف إبراز تلك الغفلة التي تنطبع في بعض الطبائع البشرية، وفتح الأذهان المغلقة على كثير من حقائق الحياة وبديهياتها أيضا مثل تلك الحكاية.

كان جحا يسير في الطريق، فأدركه الجوع، فجلس تحت ظل شجرة، وأخذ يتناول طعاما كان معه، فمرّ به رجل يعرفه من أولئك المتحذلقين الرُّقَعَاء، وبدلا من يبادله التحية نظر مُبحْلِقاً وقال: ما هذا الذي أنت فيه يا جحا؟ كيف يليق بك، أن تأكل يا شيخ هكذا على قارعة الطريق مما

---

٧٠ – محمد فهمي عبد اللطيف: **مذكرات جحا**، ص ١٤ الدار القومية للنشر، القاهرة، عام ١٩٦٥م.

٧١ – د. عبد الحميد يونس: **دفاع عن الفولكولور**، ص ٢٠١.

يحط من قدرك في أعين الناس؟ فضحك جحا في نفسه ساخرا، ثم قال: وأين الناس؟ قال الرجل: هؤلاء الذين يمرون بك، قال جحا: هؤلاء ليسوا بناس، ولكنهم بقر. فأنكر عليه الرجل قوله ولم يشأ جحا أن يدخل معه في جدل، فيسمع الناس ما كان بينهما، وتدور العاقبة عليه في النهاية، ولكن سرعان ما أسعفته بديهته بالحجّة الرادعة، فنهض من مكانه، وقال مهلا يا أخي: لا تتعجل وانتظر، ثم علا جحا وهدة من الأرض ونادى بأعلى صوته، أيها الناس، إني واعظكم فاستمعوا، وأقبل الناس يتواكبون من كل صوب، ثم ابتدأ حديث الوعظ قائلا: "يا بني آدم، أنتم كالأنعام بل أضل سبيلا، أنتم حطب جهنم يوم القيامة ... فما بقي واحد فيهم إلا وقد تحدر على خده دمعة أو أطرق آسفا على حاله.. فمضى جحا يفيض عليهم من أحاديث الأمم الغابرة حتى انتهى ما في جعبته ثم قال، أيها الناس، لقد جاء في الأثر أن من أخرج لسانه، فضرب به أرنبة أنفه غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فما بقي أحد منهم إلا وقد أخرج لسانه، وراح يحاول أن يضرب به أرنبة أنفه! فتركهم جحا على هذه الحال ثم التفت إلى صاحبه قائلا: انظر أيها الأحمق أأناس هؤلاء أم بقر؟(٧٢).

وفي نادرة أخرى: أنه وقع أحد الناس مغشيا عليه، فظن أهله أنه مات فغسلوه وكفنوه وحملوه على النعش، وساروا به، وفي الطريق تنبّه الرجل، فقعد في النعش، وصاح: أنا حي لم أمت خلصني يا جحا، فقال جحا أأصدقك وأكذب كل هؤلاء المشيّعين؟

ويؤمن جحا بأنه ليس في هذه الدنيا شيء أرخص من المجاملة أو المواساة الشكلية التي لا تتجاوز حدود اللسان، وشتان بين أقوال الناس وأفعالهم. ويدين النموذج الجحوي هذا السلوك: فقد كان مسافرا فلما أراد أن يستريح جلس إلى جوار شجرة، وسرعان ما لمح إلى جوار جذعها شيخا يبكي بكاء شديدا، وإلى جانبه كلب مُمَدٌ على الأرض، فأشفق جحا على الرجل وأقبل عليه يستطلع شأنه لعله يستطيع كعادته أن يقوم بشيء ينفعه، وما كاد يسأله جحا حتى أجابه الرجل بصوت متهدج تخنقه العبرات: كلبي كلبي، إنه صاحبي الوفي إذا ما غدر الأصحاب، فقال جحا: وما بال كلبك يا سيدي؟ قال الرجل: مسكين يجود بأنفاسه الأخيرة، إنه يموت من شدة الجوع، ولم يكن مع جحا من الزاد شيء يقدّ مه للكلب، فراح يواسي الرجل، ولكنه سرعان ما لمح إلى جوار الرجل جرابا منفوخا فسأله: ما هذا الذي في الجراب يا أخي؟ فقال الرجل: أرغفة أحملها لزادي، فقال جحا: الويل لك، كل هذه الأرغفة ولا تقدّم منها ما ينقذ كلبك الوفي العزيز؟ فحملق الرجل ثم قال: حقّا يا سيدي إنه وفي عزيز، ولكن الصلة الوثيقة بيننا لم تصل إلى باب هذا الجراب.

---

٧٢ – د. محمد رجب النجار: **جحا العربي**، ص ١٦٠، ١٦١، عالم المعرفة ـ العدد ١٠ ـ الكويت، ١٩٧٨م.

وخرج أيضا ذات مرة ساعيا في طلب الرزق حتى نزل ببلدة يبدو على أهلها أنهم قد أخذوا للصلاح كل مظاهره، فخطب فيهم جحا، وما كاد ينتهي من خطبته حتى كانوا جميعا ينشجون بالبكاء، ويشدّون لحاهم نادمين. فلما نزل ليحظى بالإكرام كما كان يتوقع، وحدث أن تفقَّد مصحفه، فلم يجده فتملّكه العجب من بكاء القوم الصالحين النادمين فقال: يا قوم حسبتكم كلكم تبكون، إذن فمن سرق المصحف؟

وهكذا لو استعرضنا كثيرا من النوادر التي تنسب إلى جحا سنجد أنه اتخذ من الغباء، أو التغابي ـ الحمق والتحامق ـ أسلوبا له في الحياة، مكيِّفا نفسه بذلك مع ظروف عصره، ومعاصريه فيما لا حيلة له في دفعه من الأخطار. وأنه كان ذا حسّ فكاهي مشهود، مؤمنا بفلسفة الضحك ودوره في التغلّب على صعاب الحياة، موهوبا يجيد قول الفكاهة بكل أدواتها المختلفة قادرا على السخرية حتى من نفسه، وأنه حاضر البديهة، سريع الخاطر، حسن التخلّص من المآزق.

أبو حيّان التوحيدي والضحك:

ومثلما كان الجاحظ أستاذ علماء الكلام على مذهب المعتزلة في القرن الثالث الهجري، وعبقري الأدب العربي وأحد فحوله العظام، فقد كان أبو حيان التوحيدي بحق أستاذ الفلاسفة في الأدب في القرن الرابع الهجري، وقد وصفه ياقوت بأنه "فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة" فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة و مكنة(٧٣).

وقد ولد التوحيدي في القرن الرابع الهجري، قمة عهود الحضارة العربية الإسلامية، واستغرقت حياته العصرَ العباسيَّ الثالثَ، وعمَّر أكثر من قرن من الزمان، وتميّزت كتاباته بالأسئلة المتعددةِ الاهتماماتِ، تنتقل من علم إلى آخر، مبنية على ثقافة واسعة، ومعارف متنوعة، فقد كان شخصية مطّلعة تستخلص الأسئلة من كل ما يقع أمامها، سواء أكانت المسائل خلقية أو اجتماعية أو لغوية أو اقتصادية أو نفسية أو فلسفية. ولم يكن اهتمامه بكل هذه المعارف سوى مجرّد نتيجة لميله إلى الدهشة التي هي أساس التفلسف، وما يميّز الفيلسوف حقا، وليس للفلسفة من أصل سواه، فالدهشة ليست هي البذرة التي تبدأ منها حياة الفلسفة فحسب، بل هي قوة الحياة نفسها التي تحملها وتسيطر على مراحل نموّها وتوجّه مصيرها(٧٤).

---

٧٣ – انظر: د. عبد الحميد الأعسم: **أبو حيان التوحيدي وكتابه المقابسات**، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٣م.

٧٤ – د. بركات محمد مراد: "أبو حيان التوحيدي فيلسوف التنوير"، **مجلة الطريق** ـ العدد ٦، بيروت، ١٩٩٥م.

وقد ورد حديث أبي حيان التوحيدي عن الضحك والفكاهة والتهكم والمزاح وغيرها من ضروب السرور في مواضع عدة من كتبه، ومن بينها نقف ـ بوجه خاص ـ عند ما ورد في المقابسة رقم ٧١ من كتاب **المقابسات** وكذلك ما جاء في مواضع مختلفة من بعض كتبه، وخاصة **البصائر والذخائر**، و **الامتاع والمؤانسة** و **الهوامل والشوامل**. فإذا استعرضنا المقابسة ٧١ من كتابه **المقابسات** وغيره من مؤلفاته، بنسبة أقواله وآرائه إلى فلاسفة عصره وأدباء على الرغم من أن هذه الآراء هي من وحي خاطره، وبنات فكره، كأسلوب خاص من أساليب الكتابة لديه.

يقول التوحيدي في هذه المقابسة الخاصة بالضحك ما يلي: "سألت أبا سليمان عن الضحك ما هو؟ فقال: الضحك قوة ناشئة بين قوتي المنطق والحيوانية، وذلك أنه حال للنفس باستطراف وارد عليها. وهذا المعنى متعلق بالنطق من جهة، وذلك أن الاستطراف إنما هو تعجب، والعجب هو طلب السبب والعلة للأمر الوارد. ومن جهة يتبع القوة الحيوانية عندما تنبعث من النفس، فإنها إما تتحرك إلى داخل، وإما تتحرك إلى خارج، وإما أولا فأولا وباعتدال، فيحدث السرور والفرح، وإما أن تتحرك من خارج إلى داخل دفعة فيحدث منها الخوف، وإما أولا فأول فيحدث منها الاستهوال، وإما تتجاذب مرة إلى داخل ومرة إلى خارج فيحدث منها أحوال أحدها الضحك، عند تجاذب القوتين في طلب السبب، فيحكم مرة أنه كذا ومرة أنه ليس كذا، ويسري ذلك في الروح حتى ينتهى إلى العصب، فيحرك الحركتين المتضادتين، وتعرض القهقهة في الوجه لكثرة الحواس، ويعلق العصب بواحد منها"(٧٥).

والضحك إذن في رأي أبي سليمان(٧٦)، أو أراء التوحيدي المنسوبة إلى أبي سليمان، قوة تنشأ عن تفاعل القوة الناطقة والقوة الحيوانية، أي عن قوتي العقل والغريزة، والضحك حالة من أحوال النفس تنشأ عندما يرد إليها "استطراف" أي شيء طارئ يُحدِث تعجبا معيّنا، يستثير الراغبة في البحث عن السبب والعلة في هذا الأمر الجديد، ويرتبط بالقِوَى الغريزية النزوعية والحساسة والمحركة "القوة الحيوانية" من ناحية أخرى.

---

٧٥ – التوحيدي: **المقابسات**، تحقيق: علي شلق، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت، عام ١٩٨٦م.

٧٦ – كان أبو سليمان السجستاني حاذقا في كثير من العلوم، ويتعرّض في مجالسه لشرح كثير من الآراء والمذاهب المتصلة بالإلهيات والميتافيزيقا، وكثير من جوانب الفلسفة خاصة المتصلة بالمنطق والنفس والأخلاق، فضلا عن مسائل السياسة ونظم الحكم، على ما يتبيّن من كتاب التوحيدي **الإمتاع والمؤانسة**، وقد تعلّم التوحيدي كثيرا منه واقتبس عنه في مقابساته جانبا كبيرا من أحاديثه الفلسفية ومناقشاته الجدلية، قلما نجدها في كتاب آخر. وقد تأثر التوحيدي به في نزعته العقلية، وفي حرصه على تحديد معاني الألفاظ والاهتمام بالمصطلحات فلسفيا ولغويا. انظر: **الإمتاع والمؤانسة**، ج ١، ص ٦٠.

وهكذا يجمع الضحك بين خصائص مشتركة للحيوان والإنسان معا "الحيوانية" وخصائص مميّزة للإنسان فقط "القوة العاقلة أو الناطقة أو المنطقية" .. ماذا يحدث عندما يطرأ هذا الاستطراف على النفس ويحدث فيها هذا التعجب أو العجب، أن تتحرك حركة خاصة إما إلى الداخل وإما إلى الخارج، فإذا تحركت إلى الخارج مندفعة غير متدبّرة، بل في طيش وتهوُّر واندفاع، حدث منها الغضب، وإما أن تتحرك شيئا فشيئا، دفعة دفعة، وباعتدال، فيحدث فيها السرور والفرح. هكذا يكون في رأي التوحيدي تدريجيا، لأنه مبنيّ على التأمل ومحاولة الفهم والإدراك ثم الاقتناص الخاص لدلالة المضحك، فيحدث السرور الهادئ من دون ضحك أو قهقهة.

أما الغضب فاندفاعة قوية هائجة غير متبصّرة، أقرب إلى العالم الخاص بالقوة الحيوانية، التي لا يراقبها خلالها العقل، ولو مراقبة غير مباشرة. كذلك قد تعود النفس من حركتها الخارجية، بفعل الاندفاع الغاضب، إلى الداخل، فيحدث منها أو لها الخوف الذي هو مفاجئ وسريع، وقد تعود من الخارج خطوة أو تدريجيا، أو على دفعات "أول فأول" فيحدث منها "الاستهوال" أو الشعور بالفزع والرعب، وهي حالة مضاعفة من الخوف مصحوبة بإدراك وفهم ومعرفة، ومن ثم فهي جامعة بين تفاعل مَّا للقوة الحيوانية والقوة العاقلة.

وقد تظلّ النفس مرة تتحرك نحو الداخل ومرة نحو الخارج، مرة تتأمل في ذاتها وما يوجد فيها من أفكار ورؤى، ومرة أخرى سريعة تتحرك نحو الخارج لتدرك ما به من أحوال الضحك وتناقضات، وتقارن بين ما هو موجود بداخلها وما هو موجود خارجها، فيحدث منها أحوال الضحك أحدها.

وهكذا تتجه النفس نحو الداخل وتكون قوة العقل والمنطق هي المسيطرة على حركتها هذه، ثم تتحرك نحو الخارج وتهيمن عليها القوة الحيوانية الخاصة بالحواس والحركة والنزوع السلوكي من ناحية أخرى، وتقارن بين ما يوجد في عالم التفكير والمنطق وما يوجد في عالم الحواس والحركة والإدراك، وتحاول أن تدرك سرّ هذا التناقض أو الاختلاف الذي أثار العجب وأدى إلى حركة التجانب هذه بين الداخل والخارج، من هذا كله تضحك النفس، وتهتز جوانحها، ثم تسري هذه الحركة في الروح، فتصل إلى الأعصاب، فتتحرك حركتين متناقضتين، متضادتين، إلى الانبساط والانقباض، فتظهر القهقهة، وهي الحركة التي تنتقل بين حواس الوجه الكثيرة وأعصاب الوجه والجسم واحدا تلو الآخر.

هذه رؤية التوحيدي للضحك التي ذكرها على لسان أبي سليمان، تعتبر رؤية عميقة وحديثة، حيث أنها تكاد ترهص، أو على الأقل تسبق ما ذكره شوبنهور لاحقا "بعد التوحيدي بأكثر من سبعة قرون" من أن الضحك يحدث نتيجة للإدراك المفاجئ للتناقض بين تصور معيّن،

والموضوعات الدافعية المحددة التي تَمَّ الاعتقاد من قبلُ بوجود علاقة بينها، وبين هذا التصور، لكنها الآن علاقة جديدة، صحيح أن التوحيدي لم يبلور مسألة التناقض هذه على نحو مفصّل، لكنه ألمح إليها في رأينا، على أي حال، بطريقة أو بأخرى.

ويذهب الدكتور شاكر عبد الحميد(٧٧) إلى أن التوحيدي يتفق فيما أرودناه هنا مع ما أشار إليه السير هارولد نيكولسون بعده بأكثر من تسعة قرون، من اعتماد حس الفكاهة على إدراك تدريجي للتناقض، إضافة إلى أن إشارات التوحيدي للأساس الجسمي للضحك، مع أنها إشارات غامضة، تتفق مع تحليلات أخرى أكثر حداثة من الناحية الزمنية تربط الضحك بحركة من الوجه تمتد إلى الجسم كله، وتكون الأعصاب هي الموصلات السريعة لهذه الحركة فتحدث القهقهة.

ويقدم لنا التوحيدي في كتابه **مثالب الوزيرين**(٧٨) صورة ساخرة تؤكد المعنى السابق، وهي تبعث على الضحك الشديد حين يصوّر جانبا من حياته في دار الصاحب ابن عباد، ويكشف فيها عن صنوف الإهانة التي لحقت به، والتي زادته تمسكا بكبريائه، واعتزازا بنفسه، فهو يقول أن ابن عباد قد اطلع عليه وهو يكتب له شيئا قد كأده به، فقام قائما فقال له الصاحب: "أقعد فالوراقون أخسّ من أن يقوموا لنا". ثم يكمل التوحيدي بقية الحكاية في صورة تهكمية تبعث على الضحك بقلم الفيلسوف الساخر حين يقول: "فلما هممت بالكلام قال لي الزعفراني الشاعر: احتمل، فالرجل رقيع، فغلب عليَّ الضحك والغيظ، واستحال الغيظ تعجبا من خفّته، لأنه قال هذا وقد لوى شدقيه وشجّ أنفه وأمال عنقه واعترض في انتصابه وانتصب في اعتراضه"(٧٩).

ويميل الدكتور زكريا إبراهيم(٨٠) إلى الاعتقاد بأن اهتمام التوحيدي باستقصاء عيوب الناس لم يكن في الأصل مظهرا لبحثه عن أمارات التدنّي الأخلاقي، وإنما كان عرضا مصاحبا لميله إلى استجلاء ما غمض وخفي من سرائر النفس البشرية، ويضيف زكريا إبراهيم: "ومهما يكن من شيء فقد قدّم لنا التوحيدي صورا فنّية جميلة، حتى حينما وصف لنا عيوب الناس ونقائصهم، فأثبت لنا بذلك أن القبح نفسه سرعان ما يستحيل إلى جمال رائع، إذا امتدت إليه يد الفنان بعصاها السحرية... فليس من عجب أن نرى أبا حيان يصور لنا سلوك الشخصيات التي يريد أن يسخر منها على أنه

---

٧٧ – د. شاكر عبد الحميد: **الفكاهة والضحك**، ص ٢٧٨، ٢٧٩.

٧٨ – التوحيدي: **مثالب الوزيرين**، ص ٩٩، دمشق، ١٩٦١م.

٧٩ – السابق، وانظر كتابنا: **أبو حيان التوحيدي فيلسوف التنوير**، ص ١٣١، ١٣٢، دار صادر للطباعة، ١٩٩٥م.

٨٠ – د. زكريا إبراهيم: **أبو حيان التوحيدي**، ٢٦٥، ٢٦٦، **سلسلة أعلام العرب**، مصر، ١٩٦٤م.

سلوك آلي رتيب، يصدر فيه الفعل مطردا على وتيرة واحدة، وتخرج فيه العبارة معادة يكررها اللسان على فترات منتظمة". مما يعني أن زكريا إبراهيم يرغب في أن يظهر التوحيدي مصورا حركات مهجونة وإخراجها بصورة ساخرة مثيرة للضحك والسخرية.

ومما يدل على استحسان التوحيدي للهزل أقواله التي تتكرر بصيغ متنوعة، وتعلي من قدر المرح والهزل، ومنها مثلا ما جاء على لسانه في **البصائر والذخائر** حين قال: "إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزال الجارية على السخف، فإنك لو ضربت عنها جملة، لنقص فهمك وتبلّد طبعك، ولا يفتق العقل شيء كتصفح أمور الدنيا، ومعرفة خيرها وشرها وعلانيتها وسرّها، فاجعل الاسترسال بها ذريعة إلى أحماضك، والانبساط بها سلّما إلى جدك، فإنك إن لم تذق نفسك فرح الهزل كزّ بها غمّ الجد"(٨١).

فالتوحيدي يرى أن الأشياء الهزلية، والتي تبدو لكثير من الناس سخيفة، هي من الأمور المطلوبة والمرغوبة، والتي لا ينبغي أن يعرض المرء عنها جملة، فإنه لو فعل ذلك لانخفض مستوى فهمه، وضاق أفق تفكيره، ونضب خياله، وتبلّد طبعه وشعوره، فهذه الأشياء الهزلية والمضحكة، والتي تصل أحيانا إلى حدّ السخف، مفيدة في رأي التوحيدي في شحذ مدارك العقل، وتنشيط طاقاته، إنها وسيلة من وسائل تصفّح أمور الدنيا ومعرفة أحوالها وتقلّباتها وتبدّلاتها، خيرها وشرها، سرّها المكتوم وعلنها المذاع، ومن ثم تكون المعرفة لديه، وكذلك حب الاستطلاع بلا حدود، فمن المطلوب ـ في رأيه ـ ترك العقل ينطلق ويعرف ويمرح، ولا يضع حدودا لحركته، فيكون الاسترسال بالنسبة إليه وسيلة للإحماض "الانتقال من الجدّ إلى الهزل" والانبساط وسيلة للالتزام والعمل، فالنفس إن لم تذق "مرح الهزل"، أصابها كرب "غم الجد".

ويقول كذلك في **البصائر والذخائر**: "ومتى سمعت التهكم في القول عرفت فضل النعمة في الاقتصاد، ومن لم يعرف الإضافة لم يعرف الحزم، وقيل لعمر رضي الله تعالى عنه فلان لا يعرف الشرّ، قال: ذلك أجدر أن يقع فيه"(٨٢). إذن فبأضدادها تتمايز الأشياء، فمن لم يعرف التهكم لم يعرف الجد، ومن لم يعرف السوء لم يتجنبه، ومن لم يعرف الإنفاق لم يعرف التوفير، ومن لم يعرف الاقتصاد لم يعرف النعمة، وهكذا يبدو التهكم هنا أمرا مسلّيا في نظر التوحيدي، ولكنه وسيلة أو تجربة لابد منها لمعرفة الجدية والالتزام، والبعد عن أخطاء القول والفعل والسلوك(٨٣).

---

٨١ – التوحيدي: **البصائر والذخائر**، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ج ٢، ص ٢٦٧، ١٩٨٨م.

٨٢ – المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٢٦٧.

٨٣ – د. شاكر عبد الحميد: **الفكاهة والضحك**، ص ٢٧٩.

وقد قال التوحيدي في **البصائر** أيضاً: "والنفس تحتاج إلى بِشْر، وقد بلغني أن ابن عباس رضي الله تعالى عنه كان يقول في مجلسه بعد الخوض في الكتاب والسنّة والفقه والمسائل: "أحمضوا" وما أراه أراد بذلك إلا تعدي النفس لئلا يلحقها كلال الجد، ولتقتبس نشاطا في المستأنف، ولتستعد لقبول ما يرد عليها فتسمع"(٨٤).

هكذا يكون للهزل أثره الإيجابي، في صحة النفس، وجودة العقل، وصفاء الذهن، وغزارة الفكر، فالهزل غذاء ودواء، ينفي عن الطبع الثقل والكثافة، ويدرأ عن الفهم الكسل والفتور". وقد تفرّد أبو حيان بالتعبير عن هذه الخاصية الوقائية للهزل على مستوى الذهن والمدارك العقلية، وكذلك مواصلة التعلّم والعلم والعمل، واستنئاف النشاط بحواس نشطة، ومدارك مستيقظة(٨٥).

ويحدثنا في **الإمتاع والمؤانسة** عن العقل والوجدان، والطريق إلى اكتساب كمالاتها حين يقول: "إن من شأن العقل السكون، ومن شأن الحس التهييج، ولهذا يوصف بالوقار والسكينة، ومن دونه يوصف بالطيش والعجرفة، والإنسان ليس يجد العقل وجدانا فيلتذ به، وإنما يعرفه إما جملة وإما تفصيلا، أعني جملة بالرسم وتفصيلا بالحد، ومع ذلك يشتاق إلى العقل، ويتمنّى أن يناله ضربا من النيل ويجده نوعا من الوجدان، فلما أبرزت الطبيعة الموسيقى في عرض الصناعة بالآلات المهيأة، وتحركت بالمناسبات التامة، والأشكال المتفقة أيضاً، حدث الاعتدال الذي يشعر بالعقل وطلوعه وانكشافه وانجلائه، فبهر الإحساس، وبث الإيناس، وشوق إلى عالم الروح والنعيم، وإلى محل الشرف العميم، وبعث على كسب الفضائل الحسية والعقلية، أعني الشجاعة، والجود والحلم والحكمة والصبر، وهذه كلها جماع الأسباب المكملة للإنسان في عاجله وآجله"(٨٦).

ويعلي التوحيدي من قدر المُنَى، والأمنيات، والتفاؤل، والاستبشار، والضحك والسرور، ويقول إن هذه الحالات لا تشتمل على نفس ظاهر أو عاجل، أو معروف، أو محدد المكان، الموضع، لكنها عظيمة الخير في باطن النفس، وفي أعمال الشعور والعقل، وثمرتها واضحة لو تفكر المرء في الأمور، وأدرك عواقبها، فلم يترك نفسه لغبان الجد وعنائه، ونعم بدلا من ذلك براحة المنى، وخلو البال والتفرغ، واستفاد مما يمنحه له الضحك من سرور، وتنشيط للذهن والوجدان".

---

٨٤ – المصدر السابق، ج ١، ص ٤١.

٨٥ – المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٧.

٨٦ – التوحيدي: **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق أحمد أمين، ج ٢، ص ٩، الجزائر، ١٩٨٩م.

كما جاء في **البصائر** أيضاً: "وكذلك صنع الله في الجد والمزح، في إمتاعه بالمنى والضحك وهما، وإن كانا في ظاهر الأمر لا يعجلان عليك نفعا معروف المكان، فإنهما يحدثان خيرا في باطن النفس، ويثمران نفعا عند تعقب الأمور، لأن المنى استراحة وتفرّغ، والضحك سرور وتنشيط"(٨٧).

وقد صوّر التوحيدي سلوك الشخصيات التي أراد السخرية منها على أنه أسلوب آلي رتيب بصورة فيها الفعل مطّردا على وتيرة واحدة، تخرج فيه العبارة معادة يكررها اللسان على فترات منتظمة، وتتخذ فيه العادة طابعا ميكيانكيا يلتزمه الشخص ولو لم يكن ثمة داع إلى ذلك، وقد احتلت صورة "الصاحب بن عباد" المضحكة جانبا كبيرا من هذا الفن عنده، وقد أوردنا صورة له.

ويذكر "محمد بلقراد" في رسالته **الفكاهة والضحك عند العرب** أن التوحيدي قد استخدم في أدبه المضحك أسلوبين اثنين: "فهو تارة يعمد إلى أسلوب الهجاء الساخر العنيف، أسلوب العداء على خصمه والقضاء عليه بإفشاء معايبه، وإضحاك الناس من مقابحه، ونقائصه، وقد أهله للتبريز في هذا المضمار ما اشتهر به من البراعة الفنية في الكتابة، واقتدار قلمه المرهف البليغ على البيان الساحر، وما كان يحمله في أطواء نفسه وأعماق قلبه من حقد شديد، وسخط عارم، على الناس، بوجه عام، وعلى من يعاديه بوجه خاص.

وخير مثال لهذا النوع من أدب السخر والتهكم ما كتبه عن الوزيرين أبي الفضل وابن العميد، ولا سيما عن الصاحب ابن عباد عدوّه اللدود. وتارة يعمد التوحيدي إلى استخدام أسلوب عذب ممتع وهو أسلوب التفكه البارع اللطيف، والدعابة الحلوة، والضحك البريء، يهدف بذلك إلى الترفيه عن نفسه لكثرة ما ألمّ به من هموم وأكدار. ونجد أمثلة على ذلك في كتابيه **الإمتاع والمؤانسة** و **البصائر والذخائر**(٨٨).

لقد ضحك العرب ـ كما يقول الدكتور أنيس فريحة في كتابه **الفكاهة عند العرب** ـ كثيرا من الفكهين والمحترفين، وكانوا من فئتين: فئة يضحك منها الناس لغرابة في شكلها الجسماني: قصر أو طول أو قباحة في ملامح الوجه أو أنف كبير أو احديداب في الظهر إلخ، وكانت هذه الفئة تضفي، على ما بها من غرابة في الخلقة مسحة من التهريج في ملابسها على ما نعهده في المهرّجين اليوم الذين يرافقون السيرك (Circus) أو مدرّح الألعاب، وفئة أخرى تضحك الناس بسرعة الخاطر التي تبديها في

---

٨٧ – التوحيدي: **البصائر والذخائر**، ج ٢، ص ٢٧٧.

٨٨ – محمد بلقراد: **الفكاهة والضحك عند العرب**، ص ٤٣١، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٧٣م.

القول والفعل والحركة، أي أن رأس مال الفئة الثانية العقل والذكاء وموهبة لخلق المضحك، وهؤلاء كانوا على كثير من الثقافة(٨٩).

وأحيانا ما يشار إلى هذه الفئة أو تلك الفئات من المتفكّهين باسم "الظرفاء" وقد انتشروا خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين وما بعدهما، واختلفوا فيما بينهم حول غاية الهزل، كما يقول البشير المجدوب(٩٠) في دراسته المهمة حول **الظرف والظرفاء في العصر العباسي**. فمنهم قائل بمجانبة الهزل، وآخر بالتزامه، ولكنهم أجمعوا على أهمية "الكيف" وأكدوا وجوب مراعاة شرطين أساسيين: النسبة والمقام، نسبة معيّنة مضبوطة من الهزل هي الحد الفاصل بين الجودة والرداءة، ومقام يتحرَّى في اختياره، بهما تتوافر الصيغة الفنية للهزل، ويكون الضحك راقيا ممتازا، لا مجرّد قهقهة رخيصة مبتذلة.

وكان معنى الظرف مرتبطا بلطافة الوجه واللسان والملبس والعقل والعلاقات، فهو يشير إلى الفطنة أو الذكاء الذي ينجلي في حلاوة اللسان، وفي حسن الهيئة والملبس، وفي نزاهة السلوك والأخلاق، إلى غير ذلك من المعاني التي تجمع بين الأخلاق الحسنة والأناقة.

وقد أسهمت فئة من الظرفاء في إثراء الأدب والشعر، وابتكار الصور وتوليد المعاني واختراعها، ومنهم أبو نوّاس، والحسين بن الضحّاك وابن المعتز، وغيرهم ممن امتازوا بأسلوبهم بالخفة والرشاقة والعذوبة والطرافة، فاشتهرت أشعارهم وعرفت بهم، ووسمت بأسمائهم منسوبة إليهم. أما الطائفة الأخرى فأصبحت حياتهم ونوادرهم وحكاياتهم موضوعات تثير السخرية والضحك، والتعجب، ومنها شخصيات عدة اشتهرت، يزخر بها كتاب **الأغاني** للأصفهاني و **الهوامل والشوامل** و **الإمتاع والمؤانسة** للتوحيدي و **البخلاء** للجاحظ وكذلك رسائله، و **العقد الفريد** لابن عبد ربّه و **طبقات الشعراء** لابن المعتز، و **الشعر والشعراء** و **عيون الأخبار** لابن قتيبة، و **الأمثال** للميداني و **يتيمة الدهر** للثعالبي، و **عيون الأخبار** لياقوت الحموي، وإلى غير ذلك من كتب التراث التي اهتمت بهذه الظاهرة ورصدت حكاياتها وإبداعاتها.

* * * *

٨٩ – أنيس فريحة: **الفكاهة والضحك عند العرب**، ص ٧١، بيروت مكتبة رأس، بيروت، ١٩٦٢م.

٩٠ – البشير المجدوب: **الظرف بالعراق في العصر العباسي**، ص ١٠٣، مؤسسات عبد الكريم، تونس، ١٩٩٢م.